

فاعلية التجاذب الأدبي بين المدرسة الأدبية القرآنية ، و التراث الأدبي الأعرابي

الأستاذ: رزيق محمد

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف

ملخص :

كانت روعة القرآن الكريم و سحر بيانه تستولي على القلوب و العقول ، وقد كان الذوق العربي السليم يساعد على إدراك هذه الأساليب القرآنية، فالفطرة الأعرابية كانت تتشوف إلى ذلك الجديد بعد إن تعلمت ما كانت تجود به أسواقهم الشعرية و الأدبية ، تعزز هذا المبدأ بان صارت قداسة القرآن متمكنة متغلغلة في نفوس المسلمين بالنظر إلى ما وجدوا في الآيات من الأحكام و التشريعات والتوجيهات التي أعادت للإنسان صفاء فطرته الإنسانية الأولى التي جبله الله تعالى عليها ، و بقي الأمر كذلك عصر النبوة ، والخلفاء الراشدين، و فترة من الدولة الأموية، لكن اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب جعل السليقة الصافية تفقد صفاءها، و اللسان الأعرابي الفصيح يتوارى بين الأخلاط الطارئة على العربية .

Résumé

La splendeur du Saint Coran et le charme de sa capture les cœurs et les esprits, et a été le goût arabe bonne aide à comprendre ces méthodes coraniques, Valaftrh syntactique était Ti_ov à cette nouvelle après que j'ai appris ce qui était des largesses de leur marché poétique et littéraire, renforcer ce principe qui est devenu sa Sainteté le Coran habilitée ancré dans le cœur des musulmans en vue de ce qu'ils ont trouvé dans les

versets des dispositions et des lois et directives qui re clarté humaine la première Aftrth humaine qui avait formé Dieu sur eux, et aussi laissé l'ère de la prophétie, et les califes, et la période de la dynastie des Omeyyades, mais le mélange des Arabes Autre que toi Aub à faire perdre la pureté de la silice nette, et la langue de l'éloquent arabe se cachant entre les mélanges d'urgence sur l'arabe.

لقد اقتضت البيئة الأعرابية القرشية التي هي المرجع و المحك لقياس المهارات اللسانية العربية المتميزة أن يختص الخطاب القرآني بتقديم النموذج اللغوي والبلاغي العربيين المغالبيين في كثير من التحدي و التجاوز لعجرفة الأعراب ، وادعاءاتهم بالتفوق المنقطع النظير في البلاغة العربية، لذلك فقد ترسّم مسلكان هما: اللسان الأعرابي البليغ من جهة ، والخطاب القرآني المعجز من جهة أخرى ، و قد ترتب عن تلك المنافرة و التحدي بروز سياق لساني وأسلوبى تبلور في مفهوم الإعجاز ، و مغزاه الانتقال من الإنشاء البشري إلى كلام الله المعجز الآخذ بلسان القوم وعاداتهم وتقاليدهم وأساليبهم البلاغية ، والمتجاوز في ذات الوقت لما بلغوه من الإبداع اللغوي.

لقد تركّز الاهتمام بموقف التحدي على جانب بلاغة القرآن ، من حيث مدى تحدي أساليبها المعجزة للسان الأعرابي القوي المتعصب لتقاليده الأسلوبية ، و قد ترتب على روح المنافسة والتفوق قيام علم لغوي طارئ هو إعجاز بلاغة القرآن ، وليس ذلك إلا لكونه يقوم برهانا على تفوق الخطاب القرآني مقابل أسواق البلاغات العربية الطاغية على أدبيات ذلك العصر، وقد

توزع ذلك المذهب البلاغي عبر نشاطات لغوية و دلالية تجسدت في مواضيع :
الأسلوب والتصور و السرد¹ الفني، والعلمي بالغيبيات ، و تقدير الحسابات
الفائقة كفاءة الإنسان.

لقد أتى هذا التوجه خادما لتقوية البرهان على صدق ربانية النبوة بما
يجعلها تفوق احتمال الإنسان ، وقد ظل ثبُت تلك المعجزات البيانية والعلمية
والمعرفية متمحورا حول بذل الأسباب الدالة على مدى قصور اللسان العربي ،
مما أنزله من عليّة السيادة و التفوق في الأسواق اللغوية العربية إلى مستوى
العجز والقصور أمام بلاغة القرآن الكريم ، وقد امتد هذا الأثر الفائق ليكون
مدرسة لغوية بلاغية طارئة جديدة على المعارف البلاغية العربية ، بكل ما
تتمتع به من الفطنة واللياقة و التفوق على البيئة الواقع فيها .

و الملاحظ إن البيئة الأدبية الأعرابية باعتبارها النموذج الأدبي الأسى ،
ظلت تتمتع بتجانس معرفي ظلت مظاهر البيئة خلاله تمد الحس البلاغي
بجملة من الفطن التي هي في نهاية المطاف جزء لا يتجزأ من النشاط البلاغي
الذي ازدانت به التوقيعات الأسلوبية و الشعرية الأخرى، فالقيافة و الكهانة
و الفراسة من النشاطات الروحية ظلت تمد الحس البلاغي بجملة من المهارات
الدلالية لا تقل شانا عن تلك الفوائد المجتناة من الممارسة الشعرية مثلا ،
وقد كانت مهارات الاستدلال عن المعاني و قراءة الأثر و السمات و العلامات
القيم الغالبة على هذا النشاط .

¹ ينظر مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، مكتبة الايمان ، 1997. ط 1 ج 1 ص 276 و ما بعدها .

تلتقي الفطن البلاغية الروحية التي ذكرناها مجملة في الفراسة و القيافة والكهانة و العيافة مع البلاغة من حيث كونها تستمد نشاطها الدلالي من كفاءات التفرس والاستدلال ، وهي ذاتها الأدوات الناجعة في قراءة الخطاب القرآني ذي الامتياز البلاغي ، و تبعا لذلك فقد ألقينا الجاحظ و هو أمام البلاغيين العرب يؤكد على هذه الخاصية لدى الكلام عن الفطن البلاغية، وقد كان يصف بعض الإعلام بقوة الفراسة و جودتها¹ .

و بناء على ما سلف تداوله من شأن التدافع البلاغي بين لغتين ، لغة القرآن الكريم ولغة شعر الأعراب و أدبيتهم على العموم ، فقد اتفق للبلاغة الجديدة كسب رهان التفوق على النشاط الأدبي السائد خلال تلك المرحلة الانتقالية من الحياة الأعرابية إلى الحياة العربية الجديدة .

ولنا أن نستوثق في موضوع التدافع البلاغي بين لغة الشعر العربي الجاهلي، وبين بلاغة القرآن الكريم الموثق في كثير من الشواهد القرآنية ، فهو كتاب الله الخالد، و معجزة الإسلام الكبرى ، و دليل نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدق رسالته، وهو " كلام الله المنزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، المعجز بصورة منه ، المنقول بالتواتر ، المتعبد بتلاوته المكتوب في المصحف"² .

وهكذا فان للتواتر و التحفظ في التلاوة المعززة بالكتابة ظلت هذه جميعها تعزز الخطاب القرآني و تقوي جانبه الأدبي ، فالتفاعل اللغوي الذي قوي بين

¹ ينظر ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البيان و التبیین ، تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة الخانجي بالقاهرة ط7 1998. ج1 ص 71.

² نور الدين عتر ، علوم القرآن الكريم، مطبعة الصباح دمشق 1993. ط1 ص10.

بلاغة القرآن الكريم و بين معجميات الشعراء الفنية أي اختصاصاتهم اللفظية و الأسلوبية ظلت تعزز قرآنية القرآن ، وتجعل من بلاغته مدرسة أدبية ظل ينهل من معينها الشعراء و الخطباء .

ولنا أن نستدل بفاعلية التجاذب الأدبي بين التراث الأدبي الأعرابي ، و بين المدرسة الأدبية القرآنية بما ثبت في الروايات الأدبية من احتباس لبيد عن قول الشعر، و قد أوقفه عن ذلك شدة الانهار الأدبي الذي صادفه في الأساليب القرآنية المغرية الغلابة ، و قد ظل بعد ذلك يعترف بشدة الانكفاء تعجبا بما بهره من قوة البيان و سحر التعبير و عجب التصوير¹.

لقد تناهضت جملة الدلالات و المعارف النقدية و البلاغية حول موضوع الإعجاز ، سعت جميعها إلى توثيق المرجعيات الثقافية و المعرفية المتصلة بالموضوع ، والثابت عند علماء المسلمين أن القرآن فصيح بالدرجة التي لا تبارى ، حتى قال أبو بكر الباقلائي: "أما دلالة القرآن فهي عن معجزة تامة ، عمت الثقّلين ، وبقيت بقاء العصرين ، ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد واحد ، وإن كان قد يعلم بعجز أهل العصر الأول عن الإتيان بمثل وجه دلالاته ، فينبغي ذلك عن نظر مجدد في عجز أول العصر عن مثله ، و كذلك قد يغني عجز أهل هذا العصر عن الإتيان بمثله عن النظر في حال العصر الأول . . . فبان بهذا وبنظائره من أن بناء نبوة صلى الله عليه وسلم على دلالة القرآن و معجزته و صار له من الحكم في دلالاته على نفسه

¹ ينظر المبرد أبو العباس ، الكامل في اللغة والأدب ، مكتبة المعارف بيروت ، ج 2 ص 60-61.

وصدقه انه يمكن إن يعلم انه كلام الله تعالى ، فارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الأنبياء... ويزيد عليها في أن نظمه معجز"¹.

و بالرغم من أن كلام أبي بكر الباقلائي يبدو صادرا عن منافحة إيمانية قوامه الدُّود عن صدق الرسالة الربانية ، إلا انه مثل هذه الآراء ظلت تحتاج إلى براهين لغوية و أسلوبية و بيانية ، و هو الجانب الذي يبدو كأنه المجال التطبيقي لدى كل كلام التركيب اللغوي القرآني المعجز الذي يقوى على مضاهاة أساليب الشعر العربي القديم ، و قد بلغ الافتتان بمعاينة هذه المقاربة بين لغة القرآن و لغة الشعر العربي القديم أن أنشأ الباقلائي شبه موازنة بين سورة البقرة و معلقة امرئ القيس ، و قد استهدف كما هو واضح تغليب لغة القرآن على لغة المعلقة الذي يبدو لنا بديهيا ، إلا أن حمية الإسلام جرت به إلى تبني هذا المنهج المهتز في نظرنا ، وكيف يعقل أن يوازن هذا بذاك ؟ . وتبدو وجوه الإعجاز مستمرة ، و ستظل مشغلة كذلك للدارسين و العلماء بحيث " ... يظل أبدا رحب المدى سخي المورد، كلما حسب جيل انه بلغ منه الغاية ، امتد الأفق بعيدا وراء كل مطمع ، عاليا يفوت طاقة الدارسين"².

و بيان إعجاز القرآن تجلى في أشكال و صور متعددة من أبرزها الإعجاز البياني ببديع نظمه ، و عجيب تأليفه ، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يُعَلِّمُ عجز الخلق عنه ، منها ما يرجع إلى الجملة ، و ذلك أن القرآن الكريم خارج عن

¹ أبو بكر الباقلائي ، إعجاز القرآن، شرح و تع محمد عبد المنعم الخفاجي ، دار الجيل د ت د ط ص 55-62.

² عائشة عبد الرحمان ، الإعجاز البياني للقرآن ، دار المعارف القاهرة د ت ط 3 ص 19.

المعهود من نظام كلام العرب ، فهو خارج عن أعاريض الشعر ، و أصناف الكلام المسجع "جاء القرآن الكريم أفصح كلاما و أبلغه لفظا و أسلوبا و معنا ، ليجد السبيل إلى امتلاك الوحدة العربية . . . و هو لا ينتهي إلى هذه الوحدة و لا يستولي عليها إلى إذا كان أقوى منها ، فيما هي قوية به ، بحيث يشعر أهلها بالعجز و الضعف والاضطراب، شعورا لا حيلة فيه للخديعة والتليس على النفس و التضريب بين الشك و اليقين"¹.

أما القرآن فإنه يقوم في الأساس على فكرة أداء المعنى المراد بصورة جمالية مؤثرة في النفس من خلال العلاقات اللغوية على اعتبار أنه يخاطب قلوب الأعراب المتشبهين بعنجهيتهم ، لذلك فإن أول تحول طرأ على نفسياتهم هو انتقال عواطفهم من القساوة إلى اللينة ، و قد تمّ ذلك حسب تقدير الدارسين (صوتياً بين الحروف، ونحوياً بين الكلمات، وصرفياً باختيار بناء صرفي محدد) وهذه العلاقات الثلاث تسهم في وضعية الدلالة وتأثيرها.

ومن فصاحة القرآن وضوح بيان معانيه، و اقتصاد مبانيه، وإيجازها، مع اكتفاء غير مخل ولا ممل، تتجلى بلاغته في عجائب تراكيبه، وجمال تعابيره، وبديع عباراته، وروائع الإشارات المتجاوزة لعادة العرب من فصاحتهم وبلاغتهم وهم على ما هم من الفصاحة والبلاغة ، وهم سدنة العربية ، وقد أوتوا من البلاغة والحِكم ومن كمال العقل ما لم يؤت به غيرهم من الأمم، حتى إنهم تساجلوا في النظم والنثر وتفاخروا وتكاثروا، فما راعهم إلاّ رسول كريم جاءهم

¹ مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن و البلاغة النبوية دار الكتاب العربي بيروت لبنان 1973

بخلاف هواهم، أتاهم بكتاب عزيز " لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ "¹ أَحَكَمْتَ آيَاتِهِ ، وَفُصِّلَتْ كَلِمَاتِهِ ، وَهَبَتْ بِلَاغَتِهِ الْعُقُولَ ، وَظَهَرَتْ فَصَاحَتُهُ عَلَى كُلِّ مَقُولٍ نَظْمًا أَوْ نَثْرًا .

لقد توسموا آيات محكمات فصلت أساليها على النسق الآخذ بقلوب الناس ، وقد عزز بمكانة القرآن تربيتهم على تبين فنون البلاغات ، فلما وجدوا فيه ما كانت تطلبه نفوسهم، انبروا يمجّدونه على تراثهم ، و يفضلونه على آدابهم ، تبعوا لما صادفوا فيه من الامتياز والتفوق عن كل تراث عرفوه.

آراء في إعجاز القرآن الكريم

كانت روعة القرآن الكريم و سحر بيانه تستولي على القلوب و العقول ، وقد كان الذوق العربي السليم يساعد على إدراك هذه الأساليب القرآنية، فالفطرة الأعربية كانت تتشوف إلى ذلك الجديد بعد إن تعلمت ما كانت تجود به أسواقهم الشعرية و الأدبية ، تعزز هذا المبدأ بان صارت قداسة القرآن متمكنة متغلغلة في نفوس المسلمين بالنظر إلى ما وجدوا في الآيات من الأحكام و التشريعات والتوجيهات التي أعادت للإنسان صفاء فطرته الإنسانية الأولى التي جبله الله تعالى عليها ، و بقي الأمر كذلك عصر النبوة ، والخلفاء الراشدين، و فترة من الدولة الأموية، لكن اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب

¹ سورة فصلت 42.

• القول بالصرفة : إن الله تعالى سلب العرب العلوم التي يحتاجون إليها في معارضة القرآن الكريم و الاتيان بمثله ، و معنى ذلك انهم أوتوا القدرة على المعارضة بما كانوا عليه من بيان و بلاغة و فصاحة ، فهم قادرون على النظم والعبارات، ولكنهم عاجزون عن الاتيان بمثل القرآن بسبب انهم سلبوا العلم الذي يستطيعون به محاكاة القرآن في معناه

جعل السليقة الصافية تفقد صفاءها، و اللسان الأعرابي الفصيح يتوارى بين الأخلاط الطارئة على العربية .

في هذه البيئة الحضارية المشوبة بالتيارات الثقافية المتباينة – كمدينة البصرة – حيث كانت دورها تموج بالتيارات الفكرية التي أنتجها التمدن العربي الجديد يتقاسمها فقهاء ومحدثون و لغويون ، و أدباء ومتكلمون ، وانبرى كل واحد ينتصر لرأيه وفرقته متعصبا، ونقض آراء مخالفه مجتهدا في بذل الحجاج.

لم تحض مسألة الإعجاز في بداية الأمر بالعناية و البحث ، ولم يلتفت إليها الناس قبل التشخص المبين، و إنما كانت ترد مثل غيرها من القضايا ذات الصلة بالنبوة و المعجزة ، تناولها المفسرون في سياق التفسير ، مع التركيز على استجلاء مزايا الأسلوب القرآني و بلاغته ذات الخصوصيات المعجزة، وباستثناء النّظام – وهو أحد شيوخ المعتزلة – ، الذي ذهب إلى أن سبب الإعجاز هو (الصرفة)¹، حتى كأنه بقوله هذا وتخريجه الظاهرة القرآنية على هذا المسمى رمى إلى تفادي مقابلة كلام الله تعالى بكلام البشر ، وقد أفادته فكرة الصرفة في أن ظل ينظر إلى قرآنية القرآن في حدود ماهيتها لا تقارن بغيرها ولا توازن .

و استقام لمسار تكون الصراع اللغوي الحضاري أن ظهرت مطلع القرن الثالث للهجري، كتب في الإعجاز توجهت جهودها المعرفية إلى الاهتمام ببلاغة

¹ ينظر عمار ساسي ، الاعجاز البياني في القرآن الكريم ، عالم الكتب الحديث الاردن 2007. ط1 ص29.

نظم الأساليب القرآنية إلى جانب التوقعات الفنية المتعلقة بطرق رسم الصور المجازية ، وقد كان الجاحظ أحد أبرز هذا المحك ، فكان أول من أثار ظاهرة الإعجاز في الكتاب الذي أشار إليه الباقلاني في كتابه الموسوم (إعجاز القرآن)، بما يتمتع به من ذوق أدبي رفيع و خبرة بالبلاغة العربية راسخة، وبصر بدقائق الأمور، وبصيرة نافذة مبتكرة، يلج بها إلى دقائق ولطائف أسرار اللغة العربية ، وقد جمع الجاحظ مع هذه الخصال ثقافة موسوعية كان أبرزها وصل الفطنة اللغوية بفطنة الحياة الأخرى، وخاصة منها البيئة من حيث تلاؤمها مع الفطن البلاغية المتصلة بالتفهم والتأويل والاستنباط والاستدلال، وقد انبرى يستمد من كل اختصاص ما يستعين به على تفهم الشعرية العربية، وجماليات الأدوات اللاحقة بذلك ،وزاد ثري في اللغة والنحو وأشعار العرب ، وقد تسلح الجاحظ متمنهما بثقافة العصر ، مُعتدا بحرية الرأي المستفادة من مذهبه المعتزلي المؤهل إلى استعمال معيارية عقلية خارقة للمألوف، واعتداد بحرية الرأي وسلاح العقل، وقد لخص كل ذلك في كتابه (نظم القرآن) *

وهو كتاب ذكره في الحيوان ، يقول : " ولي كتاب جمعت فيه آيات من القرآن لتعرف فضل الإيجاز و الحذف و فرق بين الزوائد والفضول

والاستعارات ... "1، وبذلك يكون الجاحظ قد خالف شيخه النظام المنكر لنظم القرآن باعتباره معجزة .

أما ابن قتيبة * فإنه يذهب إلى تمام ما ذهب إليه الجاحظ و يشاركه في القول بالإعجاز البياني ، القائم على حسن التأليف ، وإبراز الجوانب الفنية والبيانية من خلال التحليل للنماذج البلاغية و الأسلوبية المنتقاة خدمة للموضوع .

و بحلول القرن الرابع للهجري ، اتسعت دائرة كتب الإعجاز ، وتوجهت إلى بيان أساليب العرب في الكلام في شعرهم و خطبهم و إعطاء الاهتمام البالغ ، بدراسة وجوه البلاغة المتميزة بها لغة القرآن ، واستنباط ألوان من المجاز والتشبيه والاستعارة ، والسجع والتضمين و غير ذلك من أفانين القول ، ثم مقارنتها بالنص القرآني وألوان بلاغته ، وإبراز مزايا الأسلوب القرآني ، وتفوقها على المؤلف من كلام الأعراب ، الذي كان متداولاً شائعاً ، مركزاً على جمالية طريقة نظم ألفاظه ، ومعانيه الجميلة الجليلة الهازة لنفوس المتلقين .

• نظم القرآن : من أهم كتب الجاحظ في الإعجاز ، بل عده بعضهم أول كتاب ظهر يتناول فيها صاحبه وجوه الإعجاز فيه وأسرار البلاغة في التعبير بالقياس الى كلام العرب ، ذكره الزمخشري في مقدمة الكشف ، والباقلاني في مقدمة إعجاز القرآن والرافعي في إعجاز القرآن والبلاغة النبوية .¹ الجاحظ ، الحيوان ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده مصر 1965 . ط 2 ج 3 ص 86 .

• ابن قتيبة تأويل مشكل القرآن : تحدث عن البلاغة و علومها ، مع التمثيل بكلام العرب ، لإبراز إعجاز القرآن من خلال المقارنة ، غير ان الثقافة اللغوية لابن قتيبة طغت على استجلاءجماليات التعبير القرآني ، فاقترصر على صور جزئية للنظم القرآني .

الإعجاز عند الخطابي: اطلع أبو سليمان احمد بن إبراهيم الخطابي(ت388هـ) على ما كتبه من سابقوه من العلماء، و أضاف قائلا: "و إنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، و معنى به قائم، و رباط لهما ناظم، و إذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف و الفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، و لا ترى نظما أحسن تأليفا و اشد تلاؤما و تشاكلا من نظمه، و أما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، و الترقى إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها"¹، و مع أن الخطابي لم يدعم ما ذهب إليه بشواهد من النص القرآني، فقد أشار إلى مزيّتين لم يأت عليهما من سبقه من العلماء، و هما مزيّتا الفخامة و العذوبة، و من شأن الفخامة أن تشعر المتلقي للنص القرآني بالمهابة و الجلال، و من شأن العذوبة الحلاوة التي يجدها ذلك المتلقي و اللذة التي يتحسسها، يقول: "... فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، و أخذت من كل نوع من أنواعها شعبة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة و العذوبة، و هما على الانفراد في نعوتهما كالمضادين لأن العذوبة نتاج السهولة، و المتانة في الكلام تعالجان نوعا من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبو كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها

¹ أبو سليمان احمد الخطابي، إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح محمد خلف

الله، دار المعارف القاهرة ط3 ص 27.

القرآن ،يسرها الله بلطيف قدرته من أمره ، ليكون آية بينة لنبيه ، و دلالة على صحة ما دعا إليه من أمر دينه"¹ .

إعجاز القرآن للباقلاني : يعتبر الإمام أبو بكر محمد بن القاسم الباقلاني (ت403هـ) من كبار العلماء الذين تجردوا لتفصيل القول في إعجاز القرآن ، مستفيدا من ما كتبه السلف من العلماء ، فألف كتابه (إعجاز القرآن)، وهو احد المصادر التي تناولت إعجاز القرآن بتصور أشمل ، و مقصديات محددة ، فإعجاز القرآن عند الباقلاني هو الصفة المميزة له عن سائر كلام البشر ، مع استجلاء وجوه الإعجاز في التفرد البلاغي و التميز الأسلوبي ، ويستنتج أن القرآن الكريم يفوق النصوص الأدبية جميعا ، و يفوق كل إنتاج أدبي عرفه العرب ، لأنه " ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة ، و الغرابة ، والتصرف البديع ، والمعاني اللطيفة و الفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب في البلاغة ، و التشابه في البراعة ، على هذا الطول ، وعلى هذا القدر"² ، و خلاصة القول أن الباقلاني كان أوسع إدراكا لنظم القرآن ، والمأما ببلاغته و إعجازه ، فهو يؤكد أيضا على حسن التأليف و انتظام الكلام من خلال فصاحة ألفاظه و متانة نظمه و اتساق معانيه .

وقد بحث كثيرون في ما اصطلح على تسميته بالنظم أو الإعجاز أو البيان القرآني ، و كلها أسماء لمعنى واحد ، و مقصد واحد ، كلها تبحث في دلالية الإعجاز القرآني منذ البدايات الأولى للدراسات القرآنية ، أي : "إثبات عجز

¹ المصدر نفسه ص 26.

² أبو بكر الباقلاني ، إعجاز القرآن ص87.

البشر متفرقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله ، و ليس المقصود من إعجاز القرآن هم تعجيز البشر لذات التعجيز أي تعريفهم بعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن ، فان ذلك معلوم لدى كل عاقل ، و إنما الغرض هو إظهار أن هذا الكتاب حق ، و أن الرسول الذي جاء به رسول صادق و هكذا سائر معجزات الأنبياء الكرام "(2)¹.

و لما كان موضوع إعجاز القرآن الكريم من الموضوعات الحيوية المتجددة ، فان التأليف فيه قد كثر وتنوع ، و اتسعت مجالاته استجابة لما كان يمثل روح العصر وموجة الثقافة السائدة .

النظم أو الإعجاز عند عبد القاهر الجرجاني: يعتبر أبو بكر عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) من أشهر علماء المسلمين اهتماما بإعجاز القرآن ، من خلال تعميقه البحث في نظرية النظم ، وفي نظرية منهجية ناهضة أساسا على أساليب المجازات البلاغية الثابتة في الأعراف البلاغية العربية ، و يعتبر عبد القاهر الجرجاني من هذه الوجهة مؤسس علم البلاغة على الطريق التي تفصل هذا العلم عن باقي المحاولات والتجارب التي لم تتخلص مما علق بأوليات التفكير البلاغي العربي، من زوائد و لواحق توقعه ضمن الاهتمام اللغوي العربي المشترك، ويعد كتاباه:دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة من أهم الكتب التي أُلُفَت في هذا المجال، وقد أُلْفهما الجرجاني لبيان إعجاز القرآن الكريم وفضله على النصوص الأخرى من شعر ونثر، وله رسالة في إعجاز القرآن بعنوان

¹ محمد علي الصابوني ، التبيان في علوم القرآن ، دارشهاب ص89.90.

"الرسالة الشافية في إعجاز القرآن" حققها كل من محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، مع رسالتين للخطابي والرماني تضمنها نفس الكتاب، وهي من أفضل ما كُتِبَ في الإعجاز نفى فيها الجرجاني القول بالصرفة، مؤيداً كلامه بالأدلة القاطعة، والحجج الدامغة.

ومما ذكره الجرجاني أن الألفاظ المفردة بحد ذاتها لا ميزة لواحدة منها على الأخرى، فذلك متاح لأهل اللغة، وإن المعاني بحد ذاتها لا وجود لها بدون الألفاظ، لذلك لا ينبغي الحكم على درجة بلاغتها مفردة بل مجتمعة في نظم، فالنظم هو الذي يحدث الأسلوب المتميز بتخير الألفاظ وترتيبها على نحو معين، "إنما المعجز ما علم أنه فوق قوى البشر وقدرتهم إن كان من جنس ما يقع التفاضل فيه من جهة القدر، وفوق علومهم إن كان من قبيل ما يتفاضل الناس فيه بالعلم والفهم"¹.

يُفهم النظم عند عبد القاهر الجرجاني على أنه منهج اقتفاء أثر المعاني في الأساليب التعبيرية وفق الوجه والمنهج والأدوات الذي تقتضيها معيارية العقل القياسية "وهو تعريف يعكس الصلة المتينة بين المعنى وترتيبه في النفس... وإلى جانب هذا فإن للنظم عند عبد القاهر الجرجاني صلة وثيقة بالنحو ومعانيه"².

¹ عبد القاهر الجرجاني، الرسالة الشافية في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تح محمد خلف الله - محمد زغلول سلام، دار المعارف مصر د ت ط3ص135.

² عمار ساسي، الإعجاز البياني في القرآن الكريم، ص 31.

و أفضل الأساليب هو الذي يحقق أفضل نظم للمعنى المراد ، و بذلك يتخير أكثر الألفاظ تعبيراً عن المقصود ووضعتها في الترتيب الأكثر لياقة بالمعنى ، إذ "لايستطيع احد أن يعرف إعجاز القرآن حتى يحسن تمييز أنواع النظم المختلفة ويحسن فهمها"¹، وقد لخص عمار ساسي هذه الوجوه في ما يلي :

الصورة الجميلة التي تنقل المعنى من السذاجة إلى الحلية في التعبير .

الإعجاز في ائتلاف الكلم في نسق من الكلام ونظم من الأسلوب .

القرآن أعلى مراتب البلاغة والفصاحة والبيان ،ومنه وإليه فطن عبد القاهر الجرجاني إلى نظريته ،وقد نزل القرآن على أفصح الناس لسانا فتحدهم و أعجزهم ، و لم يستطيعوا أن يأتوا بمثله،ولا أن يأتوا بسورة أو بآية ،فأبانوا عن عجز واستسلام،

ولكن يبقى السؤال ما الذي أعجزهم فيه ؟ أعن معان دقيقة صحيحة قوية ؟ أم عن ألفاظ محكمة فصيحة؟ أجاب الجرجاني عن سر عجز العرب عن الإتيان بمثله ، وفسّر إعجابهم به فقال:"أعجزهم مزايا ظهرت لهم في نظمه،وخصائص صادفوها في سياق لفظه،وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها،ومجاري ألفاظها ومواقعها وفي مضرب كل مثل ،مساق كل خبر،وصورة كل عظة وتنبيه وإعلام،وتذكير وترغيب وترهيب،ومع كل حجة وبرهان،وصفة وتبيان،ومهرهم أنهم تأملوه سورة سورة،وعشرا عشرا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو مكانها،ولفظة ينكر شأنها ،ويرى أن هناك

¹ عمار ساسي المدخل إلى النحو والبلاغة في إعجاز القرآن الكريم ، عالم الكتب الحديث الاردن

2007، ط1 ص118.

أصلح هناك أو أشبهه، أو أخرى ، بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاما والتثاما، وإتقانا وإحكاما، لم يدع في نفس بليغ منهم ولو حك بيافوخه السماء-موضع طمع ، حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول " ¹ .
و على الرغم من قيام المغالبة بين قوة بلاغية غير إسلامية ، و أخرى ذائدة بكل قواها عن هذا الدين الجديد ، إلا أن الطرفين ، طرف الإعجاز و طرف المناوأة ظلا يتناجزان ويجتهدان في بذل أسباب الإبداع اللغوي ، وقد استفادت الساحة الأدبية من ذلك التنافس أيما فائدة ، وأثمر ذلك المسار عن كثير من الاستلهامات ، والمشاريع الإبداعية المتميزة، فغذت المسار اللغوي العربي إلى وقت بعد ذلك غير قليل.

و بالتساند إلى الأسباب التي محصنا فيها القول حول منهج عبد القاهر الجرجاني ، فان هذا العلم يعد وفق تلك الإحالات التراثية من أوائل المفكرين المسلمين الذين أعطوا الأهمية البالغة لدراسة النظم بعمق إلى درجة من العناية بلغت مستوى الاختصاص في مضماره ، ترتب على ذلك المسار الاهتمام بنظرية المعنى في الدراسات الجمالية و الأسلوبية ، فبقي اسم عبد القاهر الجرجاني متقدما ينير أرجاء زمانه ، فائحا بعبق المعرفة القرآنية ، مغطيا على روح العصر التي سادت تلك الفترة من أسباب التحول المعرفي للأمة العربية الإسلامية .

¹ عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز، تح محمد رشيد رضا ، دار المعرفة بيروت لبنان 1981 د ط ص 32.